تحيـــة الشتاء

للأستاذ عباس محمود العقاد

الحرية والأمان هما قصارى أمل الانسان

وكون الانسان آمناً فى سربه حراً فى عمله ورأيه هو المطلب الذى لا يتخطاه إلا وهو ظالم نفسه وظالم غيره ، إلا أن تكون سيادة على الآخرين برضى منهم وشهادة له بالاستحقاق ، وتلك غاية لا يطمح إليها كل إنسان

والحرية من الطبيعة موسم ، هو الصيف

والأمان من الطبيعة موسم ، هو الشتاء

فبركة الصيف هى الطلاقة ، وبركة الشتاء هى الطمأنينة ، وهذا إذا سلمت الأحوال ... فأما إذا فسدت فلا بركة فى صيف ولا شتاء

* * *

إذا لاح الصيف خرج الناس إلى المنازه ، وكرهوا الحدود والقيود ، فلا سقوف ولا أسوار ، ولا غطاء ولا دثار ، وإنما الحرية كأنما الانسان نفس من الهواء ، لا يريد إلا نفساً من الهواء

وإذا لاح الشتاء فالرياح تزمجر ، والسماء تمطر ، ومن فوقنا حجاب ومن ورائنا حجاب ، ولا سرور إلا أن تسكن إلى الدف الوثير بين الجدران

وهكذا تتمثل فى الطبيعة غاية مطالب الانسان : الحرية والأمان

والناس يزعمون أن البركة كلها فى الربيع ، وأنه موسم الزهر والفاكهة ، ومشهد الحب والجمال ، ومعرض المدينة والريف . فهل بقيت للشتاء بقية بعد هذه المحاسن والخيرات ، وبعد يقظة النفس ويقظة الدنيا ؟

والناس لا ينصفون ، أو لعلهم ينصفون وينسون . فبعد الربيع يبقى الشهور بالربيع ، ومن أوفى نصيبا من هذا الشهور ؟ أهل الربيع أو أهل الشتاء ؟ الذين يجدون الربيع سهلا غير مرقوب ، أو الذين يجدونه عسيراً بعد ارتقاب واشتياق ؟

ما عرف الربيع أناس كالذين اختبروا قسوة الشتاء ، فالشمس ضيف ثقيل فى بلاد الصيف الفائظ ، وطلعة جميلة فى بلاد الشتاء القارس ؛ والزهرة فتاة مبتذلة من فتيات الطريق عند من يشهدونها فى كل يوم وفى كل مكان ، وهى عروس خفرة و « رسولة » مبشرة عند من يشهدونها آونة بعد آونة ، ومقبلة مع الخير والحرية ومحاسن الأرض والسماء

أهكذا وحسب ؟

كلا . بل للشتاء أثر فى تقويم الجمال غير هذا الأثر فى تعريفنا بقيمة الربيع

للشتاء أثر فى أمم الشمال نلمسه فيما رزقته من حصافة وخيال ، فهو الذى علمها الشعر والفن ، وهو الذى علمها العمل والصناعة ، وهو الذى علم أقوامها أن يطلبوا شيئاً فوق الأمان والحرية ، ونعنى به سيادتهم على الأمم التى جاءتها حرية الطبيعة بغير عناء

تخيل رجل الشمال المثلج والريح تعصف ، والبرق يخطف ، والرعد يقصف ، والسماء لا شمس فيها ولا قمر ، والأرض لا زهر فيها ولا ثمر ، والنفس لا ترى لها مدى تمتد فيه إلا أن تثوب إلى سريرتها وتتغلغل فى طويتها ، وتخلق الصور وتناجى الأحلام وتأنس بالخواطر والأشجان

وتخيل هذا الرجل منفرداً فى كوخ منفرد ، ولا بد من انفراد فى ساعة من الساعات وفى أمد من الآماد

ألا ترى أنه خليق أن يعمر عالم السريرة بخلائق الخيال ، وأحلام الشوق والجمال ؟

ثم تخيل قوم هذا الرجل سنة بعد سنة وجيلا بعد جيل ، وكل سنة تضيف إلى قدرتهم على كفاح الشتاء قدرة جديدة ، وإلى حيلتهم فى دفاع البرد حيلة مفيدة ، وإلى عزيمتهم فى درء السيول والأمطار عزيمة رشيدة . فكيف تراهم يكونون بعد مائة شتاء وبعد ألف عام ، وبعد ما لا عداد له من أجيال وسلالات ؟

ثم تعلم أن الأعصاب هى خزانة الأخلاق الموروثة والقوة النفسية المذخورة ، فماذا تكون الأعصاب التى تفتلت على هذا الجلد وهذا الجليد ؟ وماذا تكون الطاقة فيها على استيعاب الشعور واختزان الأحاسيس وتصوير الأخيلة والأشكال ؟

فى الشتاء تربية للخيال ، وتربية لوحى السريرة ، وتربية للأعصاب وتربية للأخلاق ، وفى كل أولئك استزادة من نصيب الشعور ، ونصيب الفهم ، ونصيب العزيمة ، ونصيب الخلق والابداع

ومن ثم يأخذ القوم من الربيع فوق ما يعطيه أهله المرضين عنه الجاهلين بقدره ، الناظرين إليه عن عرض كأنه زينة نظر فى ساعة صفو أو ليلة سمر ، فلا أعماق له وراء ذلك ولا أسرار

على أن الشتاء قد يفرط فى قوته وقسوته حتى تبطل فيه كل حيلة الانسان فلا يبقى له غير حيلة الحيوان : جلد دب سلوخ ، وإيواء إلى كوخ ، كأنه كهف ، أو كهف كأنه كوخ ، وهكذا شتاء القبائل الحافين بقطب الشمال

وإن الصيف ليفرط فى طلاقته حتى تنقلب إلى مطاردة كأنها الملاحقة بالسياط الكاوية ، فتبطل فيه كل حيلة الانسان ، ولا يبقى له غير حيلة الحيوان : بركة ماء ، أو ظلال غابة غيباء ، وكذلك صيف خط الاستواء

ولا بركة فى هذا ولا فى ذاك ، وإنما البركة فيما لم يجاوز الحدين من هذين الموسمين

* * *

وبعد فنحن نذكر بركات البرد والحر ، فهلا ذكرنا أناساً لا يجدون البركة فى أوان ، ولا فى مكان ؟

يقول حكيمنا :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته فقير معرى أو أمير مدوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتا واحدا وهو أحوج

هذا الواحد أولى بذكر الألوف ، لأنه واحد تجتمع منه ألوف ، ولن ينساه فى مستهل الشتاء إلا مخلوق يستحق النسيان ، بل يستحق الذكر بالمسبة إن كانت قوانين أبناء آدم لا تذكره بالزجر والعقاب

ما تمنيت لمصر عملا من أعمال الأمم التى هدمت الديمقراطية إلا إعانة الشتاء التى يخرج كبراء الألمان لجمعها من الخاصة والعامة فى الصرفات والأسواق : ذلك عمل مجيد نحن به أولى ، ونحن إليه أحوج ، ونحن عليه أقدر ، فيما يبدو لنا من تفاوت بين رخاء بلادنا وضنك البلاد الأخرى

فاذا ألهمنا أن نعين المحتاجين منا إلى معونة الشتاء فقد حق لنا أن نسبغ على شتائنا صفة الأمان الشامل ، وأن يشتمل علينا جميعاً راضين آمنين ... ونرجو أن نلهم هذه البرة فما فيها مشقة على قادرين ولا أشقاء قادرين

وكل شئ تقال فيه كلمة ثناء ، حتى الشتاء

عباس محمود العقاد

رجال التربية والتعليم

فى وزارة المعارف

للدكتور زكى مبارك

الذى يقرأ الجرائد المصرية يتوهم أن وزارة المعارف عبارة عن بناية فسيحة الأرجاء ، يجلس فيها الموظفون هادئين وادعين يتبادلون التحيات والسجائر والشاى والزنجبيل

وإنما يكثر اللغط حول وزارة المعارف لأن موقعها بين سائر الوزارات ، يشبه موقع كلية الآداب بين سائر الكليات . فوزارة المعارف تهتم بتعويد الناس على فصاحة الكلام فيكثر حولها الكلام الفصيح ، بالنقد والتجريح ؛ وكلية الآداب تحرص على أن تتفلسف فيكثر فى نقدها المتفلسفون ، ولا يظالمك من يرد إليك بعض ما تنفق !

والحق أن وزارة المعارف فى هذه الأعوام لا تعرف الهدوء ، فهى نار تستعر فى الصباح والمساء

ومن كان فى ريب من ذلك فليزر مكاتب الوكلاء والمراقبين والمفتشين ، فان فعل فسيعرف أن فى القاهرة مكاناً يشبه برج بابل فى أساطير الأولين

يستطيع من يهمه الوقوف على مصادر الحيوية فى وزارة المعارف أن يزور أى مكتب من تلك المكاتب ليوقن بأن الجد الصريح هو أساس العمل فى تلك الدار الفيحاء

احضر إن شئت إلى تلك الوزارة وفى يدك قلم وقرطاس لتدون ما تسمع من الجدل حول المذاهب التعليمية ، ولتدون ملاحظاتك الخاصة على مذاهب أولئك القوم فى الحياة ، وإنى لموقن بأنك ستخرج من ذلك بمحصول نفيس

ويحسن ألا تمر على مكتب وكيل الوزارة أو مكتب الوكيل المساعد ، فان الاستفادة من هذين المكتبين لا تضمن إلا لمن عرف سرعة الكهرباء فى إنجاز الأعمال

ويغلب على الظن أن الرجل الذى اسمه محمد المشاوى يملك شيئاً من مواهب الشعراء ، فسرعته فى تسوية المشكلات ليست إلا ضرباً من أعمال الشياطين